

الفصل الأول

الديموجرافيا اليهودية

يهودى بشكل ما

يتصور الكثيرون أن اليهود كتلة بشرية متجانسة، وأن ثمة قالباً يهودياً يمكن أن نضع فيه كل اليهود. ولكن الدراسة المتأنية تبين أنه لا يمكن الحديث عن اليهود بشكل عام، ولذا فإنى أفضل الحديث عن «الجماعات اليهودية»، وهى جماعات مختلفة، تكتسب خطابها الحضارى من المجتمع الذى تعيش فيه. وهنا يطرح السؤال نفسه: لِمَ نسميها جماعات يهودية، وليست جماعات وحسب؟ الإجابة على هذا السؤال صعبة بعض الشيء إذ يمكننا القول إن ما يجمعها هو عقيدتها اليهودية، ولكن ثمة مشاكل كثيرة ستواجهنا. وابتداءً يجب أن نشير إلى أن ثمة فرقاً بين اليهودية واليهود. فاليهودية عقيدة دينية لها سمات معينة، واليهود هم من يؤمنون (أو يدعون الإيمان) بها. ولا يوجد مجال لترادف الواحد بالآخر (هل يوجد ترادف بين الإسلام والمسلمين أو بين المسيحية والمسيحيين؟). وعدم الترادف هذا يزداد عمقاً فى حالة اليهودية التى عرّفت اليهودى بطريقة عقائدية، كما تفعل كل الأديان (اليهودى هو من يؤمن باليهودية). ولكنها عرّفته أيضاً بطريقة عرّقية، كما تفعل العقائد البيولوجية الحتمية (اليهودى هو من يولد لأم يهودية).

وينقسم أعضاء الجماعات اليهودية إلى عدة أقسام أساسية: إشكناز وسفارد ويهود البلاد الإسلامية. ولكن إلى جانب ذلك بيّنت أن هناك جماعات يهودية هامشية لا حصر لها ولا عدد. فهناك على سبيل المثال لا الحصر السامريون الذين لا يؤمنون بالتلمود ولا بمعظم كتب العهد القديم، وإنما يؤمنون بأسفار موسى الخمسة أساساً بنسخها المختلفة عن

تلك المتداولة بين اليهود كافة، ومركزهم هو جبل جرزيم فى نابلس، لا جبل صهيون، وهم لا يؤمنون بمجىء الماشيخ. وهناك أيضا القراءون الذين تمردوا على التلمود (بتأثير الفكر المعتزلى الإسلامى)، وزلزلوا اليهودية الحاخامية من جذورها، لكن لم يبق منهم سوى بضعة آلاف فى كاليفورنيا وبعض مناطق روسيا وإسرائيل. وهناك بقايا يهود كايفنج فى الصين، يعبدون يهوه الذى يسمونه تين (السماء) ويتعبدون فى معبدين يهوديين، أحدهما لعبادة الإله والآخر لعبادة الأسلاف. وهم لا يعرفون لا التلمود ولا التوراة، وملاحمهم صينية تماما. ويقدمون لأسلافهم قرابين من لحم الضأن، أما هم فلا يمانعون فى أكل لحم الخنزير. ويمكن أن نشير إلى يهوديتهم بأنها كونفوشيوسية (تماما مثلما نجد أن يهودية بنى إسرائيل فى الهند يهودية هندوكية). وهناك عشرات من الجماعات والطوائف والفرق اليهودية الأخرى الهامشية.

لكن بدلاً من الدخول فى تفاصيل لا حصر لها، يمكن أن نقارن بين عينتين: إحداهما مركزية وتضم يهود الولايات المتحدة الذين يشكلون أكبر تجمع يهودى فى العالم، والأخرى هامشية وتضم الفلاشا الذين يشكلون تجمعا صغيرا هامشيا ومنعزلا. وقد لاحظت الأولى عن قرب نتيجة للوقت الطويل الذى قضيته فى الولايات المتحدة، أما الفلاشا فقد قرأت عنهم الكثير.

ينتمى يهود الولايات المتحدة، بالدرجة الأولى، إلى الجنس الأبيض، وأغلبيتهم الساحقة من أصل إشكنازى (ألمانى / روسى / بولندى). وتوجد قلة من السفارد، والقرانين، والكرمشاكى (وهم ينتمون إلى جماعة يهودية صغيرة من شبه جزيرة القرم، يتحدث أعضاؤها بالقرتية، ويبدو أنهم من بقايا يهود الخزن). وهناك أيضا بعض الأمريكيين السود الذين يدعون «العبرانيين السود» (يقال إن بعضهم ثمرة الجماع بين بعض أصحاب

المزارع اليهود وخليلاتهم السود والبعض الآخر ثمرة التهود)؛ وهؤلاء يؤمنون بعقيدة شبه يهودية تتحدث عن مؤامرة الإنسان الأبيض لفصل آسيا عن إفريقيا عن طريق شرق قناة السويس، ويدعون أنهم هم العبرانيون الحقيقيون، ومن ثم يرون أنهم هم وحدهم أصحاب الحق في استرداد إسرائيل والاستيطان فيها وحكمها. وتوجد جماعة منهم في شيكاغو هاجرت أعداد منها إلى إسرائيل، حيث استقروا في جوار ديمونا في أماكن أخرى. وبطبيعة الحال فإن إسرائيل والمؤسسات الحاخامية لا تعترف بأمثال هؤلاء، ولذا فهم يشكلون أقلية منبوذة داخل كل من الدولة الصهيونية والجماعة اليهودية في الولايات المتحدة.

أما الفلاشا، فهم من يهود إثيوبيا، وملاحهم لا تختلف من قريب أو بعيد عن ملاح بعض قبائل أو أقوام إثيوبيا. وإذا كان هناك بينهم من تنويعات، فهي تنويعات تشبه في بعض الوجوه التنويعات الموجودة في مجتمعهم. وهناك جماعة الفلاشا مورا، وهي جماعة مسيحية شبه يهودية منبوذة من الفلاشا كانت قد تنصرت منذ ما يقرب من قرنين من الزمان.

ومن الناحية الدينية، ينقسم يهود الولايات المتحدة إلى قسمين أساسيين: يهود إثنيون لا أدريون، ويهود متدينون، وهؤلاء ينقسمون بدورهم إلى إصلاحيين ومحافظين وتجديديين وأرثوذكس (ويوجد بعض الفرق الأخرى شبه الدينية من أتباع العبادات الجديدة). واليهود الدينيون في الولايات المتحدة يتعبدون في المعبد اليهودي (السيناجوج)، ويرأسهم حاخام، ولا يقيمون معظم الشعائر، ولا يكثرثون بالطعام الشرعى أو بشعائر السبت والطهارة والنجاسة.

أما الفلاشا، فهم أساساً خارج نطاق اليهودية الحاخامية، ولا يعرفون التلمود، وتختلف بعض شعائرهم عن شعائر اليهودية الحاخامية؛ فشعائر الطهارة والنجاسة عندهم مركبة وشاملة، ومع هذا، فهم يقيمون شعائرهم

كلها (وقد صُدموا حينما هاجروا إلى إسرائيل بسبب انصراف أعضاء الدولة اليهودية عن الشعائر اليهودية). ويرأس يهود الفلاشا قساوسة (يُقال لهم قسيم)، وهى جمع كلمة «قسيس» بالعبرية، ولا أدرى هل يستخدمون هذه الصيغة العبرية فى إثيوبيا نفسها، أو أنها شكل من أشكال التدليس الصهيونى، فكتبت الكلمة على هذا النحو حتى لا يضطر المؤلف إلى كتابة كلمة priests الإنجليزية بكل إحياءاتها المسيحية؟ وهم يعرفون نظام الرهبنة، إذ فيهم رهبان وراهبات، ويصلون فى معبد يهودى يسمّى المسجد، ويخلعون نعالمهم قبل دخوله! (هل يمكن اعتبارهم يهودا أساساً؟). أخبرنى صديق فلسطينى يعمل فى موشاف (مزرعة تعاونية) أنه كان هو وأصدقاؤه الفلسطينيون يؤدون صلاة الجماعة، ففوجئوا بأحد العمال الفلاشا ينضم لهم ويحاول تأدية الصلاة، فهو يعرف بعضها وحسب. وتصورى أنه من مناطق يسكنها الفلاشا قريبة من المناطق الإسلامية، فتأثروا بها. المهم انتهت القصة بأن قام صاحب الموشاف بطرد الجميع.

ومن ناحية اللغة، فإن يهود الولايات المتحدة يتحدثون الإنجليزية، ويعرف بعض علمائهم العبرية والأرامية. كما توجد العبرية فى بعض كتب الصلوات. أما يهود الفلاشا، فهم يتحدثون بالأمهرية (ويتحدث بعضهم بالتيجرينية)، ويتعبدون بالجعيزية، لغة الكنيسة القبطية الإثيوبية، ويضم كتابهم المقدس بعض نصوص العهد الجديد.

ولكل جماعة من هاتين الجماعتين خطابها الحضارى وفلكلورها الذى ينبع - فى حالة يهود أمريكا - من محيطهم الحضارى الحالى (الأمريكى)، أو من محيطهم الحضارى السابق (روسيا - بولندا - إنجلترا). أما فى حالة يهود الفلاشا، فهو ينبع كله من محيطهم الحضارى الإثيوبى الإفريقى. وفى حين أن اليهودى الأمريكى يرتدى البنطلون «الجينز» ويأكل «الهامبرجر» ويرقص الديسكو ويعيش فى منزل عصرى، وقد يُطعم حديثه

ببعض الكلمات اليديشية، ويتحدث بعض الحسيديين منهم باليديشية، كما يحتفظ بعضهم بالأزياء التي كانوا يرتدونها قى شرق أوربا، فإن يهودى الفلاشا يرتدى شالاً لا يختلف عما يرتديه من حوله من أبناء إثيوبيا، وهو يأكل طعامهم، ويرقص الرقصات المعروفة فى منطقته، ويعيش فى كوخ مغطى بالحطب لا يختلف من قريب أو بعيد عن الأكواخ المجاورة. والوضع الاجتماعى ليهود أمريكا (نسبة الطلاق - الوظائف - المهن) ورؤيتهم للكون يختلف تماماً عن وضع الفلاشا ورؤيتهم.

لهذا كله، وجدت أن مصطلح «يهودى» مصطلح عام للغاية، ومقدرته التفسيرية والتصنيفية ضعيفة إن لم تكن منعدمة بسبب عموميته وإطلاقه. ولعل عدم تحدد مصطلح «يهودى» يظهر فى عبارة تستخدمها الإحصاءات اليهودية لتشير إلى مجموعة من الناس يصنفون على أنهم «يهود بشكل ما» (بالإنجليزية: جويش سام هاو Jewish somehow) وهى عبارة خالية من المعنى، تدل على مدى الإخفاق فى تعريف اليهودى.



الديموجرافية اليهودية وظهور الصهيونية

حينما نتناول المسألة اليهودية وظهور الصهيونية فى العالم الغربى، فإننا - إذ كنا لا نؤمن بنظرية المؤامرة والشر اليهودى الأزلى - نبحث عن الأسباب السياسية والاجتماعية التى أدت إلى تفشى الظاهرتين المتلازمتين: العداء لليهود والصهيونية فى نهاية القرن التاسع عشر فى الغرب. ومن الأسباب السياسية والاجتماعية التى لم ينتبه لها كثير من الباحثين البُعد الديموجرافى لهاتين الظاهرتين، وكثير من الجوانب الأخرى لتواريخ الجماعات اليهودية.

تقول التقديرات التخمينية إن تعداد العبرانيين فى عام ١٠٠٠ ق. م بلغ نحو ١,٨٠٠,٠٠٠. ولكن هناك من يذهب إلى أن هذا العدد مُبالغ

فيه. فلسطين بلد صغير، مواردها فقيرة، ومستوى تطور سكانها التكنولوجي آنذاك كان منخفضاً، فكيف كان من الممكن أن تمتد مثل هذا العدد بأسباب الحياة (مع العلم بأن عدد سكان مصر آنذاك بكل إمكاناتها كان ستة ملايين)؟ ولعل فقر فلسطين آنذاك ووقوعها بين الإمبراطوريات العظمى فى الشرق الأدنى القديم جعلها نقطة عبور لكثير من جيوشها ونقطة ارتكاز لها. وقد أدى هذا إلى هجرة أعداد كبيرة من العبرانيين، ليعملوا كجنود مرتزقة فى البلاد المجاورة، أو كتجار فى حوض البحر المتوسط، أى إن هذا هو بداية ما يسميه الصهاينة «الشتات» أو «الدياسبورا».

مهما كان الأمر، تناقصت أعداد العبرانيين حتى بلغ نحو مليون ومائة ألف نسمة حوالى عام ٧٢٠ ق. م، ثم انخفض هذا العدد مع التهجير الآشورى والبابلى (٧٢١ ق. م و ٥١٧ ق. م على التوالى) فلم يتجاوز عدد العبرانيين ١٥٠ ألفاً. وهذا الرقم الأخير يُلقى بظلال كثيفة من الشك على الأرقام المليونية السابقة، لأن الآشوريين والبابليين كانوا يقومون بتهجير أعضاء النخب الحاكمة للأقوام التى يهزمونى وحسب، مما يعنى أنهم كانوا يتركون أغليبيتهم فى مواطنهم. وقد انصهر معظم المهجرين العبرانيين فى البلاد التى هُجروا إليها (ومن هنا الحديث عن «الأسباط العشرة المفقودة» التى يجب أن تصبح فى واقع الأمر «الأسباط العشرة المنصهرة») كما ازداد اندماج من تبقى من العبرانيين فى فلسطين والشعوب المحيطة بها.

ولكن مع نهاية القرن الأول قبل الميلاد تختلف الصورة تماماً إذ يبلغ عدد اليهود آنذاك - حسب بعض التقديرات التخمينية - حوالى ٨ ملايين، بينما تذهب بعض التقديرات التخمينية الأخرى إلى أن عددهم لم يكن يتجاوز خمسة ملايين ويمكن أن نشير إلى طفرتين سكانيتين فى تاريخ

أعضاء الجماعات اليهودية وهذه أولها. وهي تعود لعدة أسباب من بينها قيام الدولة الحشمونية بتهويد بعض القبائل والشعوب المجاورة التي وقعت تحت سيطرتها، كما أن الفرنسيين قاموا بحركة تبشيرية في حوض البحر الأبيض المتوسط، فقد طوّروا مفهومًا لليهودية جعل منها ديانة عالمية منفتحة (على عكس اليهودية الحاخامية أو التلمودية التي جاءت بعدها). كما أن ما يسمى الأمن الروماني «باكس رومانا» الذي ساد المناطق التي كان يعيش فيها أعضاء الجماعات اليهودية قد وفر لهم الأمن والطمأنينة، الأمر الذي ساعدهم على التكاثر. واشتغال اليهود بالتجارة كان يعنى ابتعادهم عن المهام القتالية، مما يعنى أنه لم يسقط من بينهم قتلى. ويُقال إنه مع سقوط قرطاجة انضمت الدياسبورا الفينيقية والقرطاجية إلى أعضاء الجماعات العبرانية اليهودية باعتبارهم جميعًا ساميين ينتمون إلى نفس التشكيل الحضارى ويعملون بنفس المهنة (التجارة). ولعلمهم فعلوا ذلك حتى يستفيدوا من شبكة التجارة اليهودية.

وهنا يجب أن نشير إلى حقيقة سكانية هامة تحرص المراجع الصهيونية على إخفائها وهي أن غالبية اليهود كانت تعيش خارج فلسطين قبل سقوط الهيكل (٢,٥٠٠,٠٠٠ فقط هي فلسطين والباقي خارجها، إن أخذنا بالرقم ٨ ملايين). وهذا يدحض الأسطورة الصهيونية التي تذهب إلى أن شتات اليهود كان قسريا وأنه حدث بسبب سقوط الهيكل (مركز اليهود واليهودية)، وأنه لم يكن مجرد انتشار طوعى، بحثًا عن الرزق كما يحدث لكثير من الجماعات البشرية.

وإذا كان عدد اليهود قد وصل بالفعل في القرن الأول الميلادى إلى ما بين ٨ ملايين في أحسن تقدير وخمسة ملايين في أسوئه، كان من المفروض أن يصل عددهم من خلال التكاثر الطبيعى إلى خمسين أو ربما مائة مليون في القرن السادس الميلادى مع بدايات العصور الوسطى في

الغرب والعصر الإسلامى فى الشرق. ولكننا نفاجأ بأن عددهم لم يتجاوز مليوناً أو مليونين (كان أغلبهم يتركزون فى العالم الإسلامى). ولا يمكن تفسير هذه الظاهرة إلا بأن أعداداً كبيرة من أعضاء الجماعات اليهودية قد اعتنقت المسيحية وأنصهرت فى مجتمعاتها (وهذا يتناقض مع الرؤية الصهيونية التى تذهب إلى أن اليهود لا يندمجون فى مجتمعاتهم قط ويؤثرون العزلة فى جيتواتهم، وهى أسطورة أخرى تدحضها الوقائع الإحصائية فى الماضى والحاضر والمستقبل (كما سنبين فيما بعد).

وقد بدأت الطفرة السكانية الثانية والأخيرة بين اليهود بعد مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ حتى بلغ عددهم عشية الحرب العالمية الثانية ١٦,٧٢٤,٠٠٠ كما هو مبين فى الجدول التالى:

السنة	العدد الإجمالى
١٨٠٠	٢,٥٠٠,٠٠٠
١٨٤٠	٤,٥٠٠,٠٠٠
١٨٦٠	٦,٠٠٠,٠٠٠
١٩٠٠	١٠,٥٠٠,٠٠٠
١٩٣٠	١٥,٩٠٠,٠٠٠
١٩٣٩	١٦,٥٠٠,٠٠٠

وتعود هذه الطفرة إلى عدة أسباب من بينها تحسُّن الأحوال الصحية فى العالم الغربى نتيجة الثورة الصناعية، خاصةً بين اليهود نظراً لأن مستواهم المعيشى كان أعلى من مستوى غالبية السكان. نضيف إلى هذا أن المستوى الثقافى العام بين أعضاء الجماعات اليهودية كان أعلى من مستوى

الفلاحين السلاف. وقد انعكس هذا بطبيعة الحال على نوعية الطعام الذى يستهلكونه وأدى إلى اختفاء أو تناقص الأمراض المرتبطة بالفقر وسوء التغذية. كما أن الرقابة على الطعام بين الجماعات اليهودية كانت قوية نظراً لتطبيق قوانين الطعام. وكانت الأسرة اليهودية تتمتع بدرجة عالية من التماسك، الأمر الذى يُشجّع على الإنجاب، ويضمن الرعاية الصحية للأطفال مما يخفض نسبة الوفيات بينهم.

ويقال إن زواج اليهود فى سن مبكرة كان من أهم العناصر التى ساهمت فى تزايد عددهم. وأخيراً لم تشهد الأماكن التى تركزت فيها الجماعات اليهودية فى الفترة بين عامى ١٨٠٠ - ١٩٨٤ أية حروب، كما أن كثيراً من الدول كانت لا تجنّد أعضاء الجماعات اليهودية. كل هذه العوامل أدت دون شك إلى تزايد عدد أعضاء الجماعات اليهودية. وحسب الجدول السابق نجد أن عددهم زاد ستة أضعاف فى غضون قرن ونصف. وكان معظمهم يتركزون فى شرق أوروبا، خاصةً بولندا/ روسيا. وقد تزامنت هذه الطفرة السكانية مع تعثر التحديث فى روسيا القيصرية، مما جعل الاقتصاد الروسى غير قادر على استيعاب الأعداد المتزايدة من أعضاء الجماعات اليهودية، مما أدى إلى ظهور جو معاد لليهود داخل روسيا وملائم لظهور الصهيونية، التى تطالب بتخليص أوروبا من اليهود. وبدأت جحافل اليهود تهاجر إلى بلاد أوروبا الوسطى والغربية.

وقد أدى تزايد عدد اليهود إلى تفاقم المسألة فى البلاد التى كانوا يهاجرون إليها (باستثناء البلاد الاستيطانية مثل الولايات المتحدة وكندا وأمريكا اللاتينية نظراً لحاجتها لمادة استيطانية). ولعل حالة النمسا وإنجلترا (باعتبارهما مهد فكرة الصهيونية ووعد بلفور على التوالى) يصلحان كمثالين على ما نقول. فى عام ١٨٤٦م كان عدد يهود فيينا (التي كان يقطن فيها هرتزل مؤسس الصهيونية) ٣,٧٣٩ يهودياً فقط لا غير،

وصل عددهم إلى ١٥ ألفاً عام ١٨٥٤، وبلغ ٢٠١,٥١٣ عام ١٩٢٣ م. ولا شك في أن وجود مثل هذه الكتلة البشرية الغريبة وبهذا الشكل المفاجئ جعل الكثير من أعضاء الأغلبية يتصورون - إن صدقاً أو كذباً - أن هذه الكتلة هي مصدر البطالة وكثير من الأمراض الاجتماعية وأنها تهدد الأمن الاجتماعي، مما ولد موقفاً معادياً لليهود ورغبةً في التخلص منهم باعتبارهم فائضاً بشرياً غير منتج وغير منتم (وهذا هو ذاته الموقف الصهيوني). وفتح هذا المناخ ظهر هرتزل، الصحفي النمساوي المندمج تماماً في مجتمعه، ومؤسس الفكر الصهيوني الذي تبنى كثيراً من اليهود المندمجين في بلاد وسط أوروبا وغربها هذا الفكر، باعتباره دفاعاً عن أنفسهم وعن مواقعهم الطبقية ومكانتهم الاجتماعية التي كان يهددها هؤلاء المهاجرون من يهود اليديشية (الذين يتحدثون اليديشية وهي رطانة المانية دخلت عليها بعض الكلمات العبرية والسلافية، وتُكتب بالحروف العبرية)، والذين كانوا يحملون معهم عقلية جيتوية وشعوراً عميقاً بعدم الاطمئنان دون أن تكون لديهم الخبرات اللازمة للاندماج في مجتمعاتهم الجديدة.

ويمكننا الآن أن نتناول الوضع في إنجلترا. كان يوجد في إنجلترا عام ١٨٥٣ حوالي ٢٥ ألف يهودي فقط لا غير، وصل عددهم ٢٤٢ ألفاً عام ١٩١٠م ثم حوالي ٣٠ ألفاً، وكان عدد كبيراً من المهاجرين تجاراً وحرفيين صغاراً، أدى تواجدهم بهذه الأعداد الضخمة إلى ازدياد البطالة وازدحام المدن وانتشار الجريمة. ولذا ظهرت توترات شديدة لا بينهم وبين المجتمع الإنجليزي وحسب، وإنما بينهم كوافدين (من الأشكنان) وبين اليهود الأصليين (وكان معظمهم من السفارد) وكان هذا الفريق الأخير يشعر بأن الوافدين يهددون ما حققوه من مكاسب اجتماعية وطبقية.

ويلاحظ أن الاشتراكيين الإنجليز المعارضين للإمبريالية قد ذهبوا إلى أن مجموعة صغيرة من المولدين الدوليين - ألمان في أصلهم ويهود في عنصرهم - حققوا نفوذًا قويًا في جوهانسبرج (في جنوب إفريقيا). وقد وصفهم بأنهم «الحثالة الحقيقية» لأوروبا، يسيطرون على حقول الذهب ويحتكرون صناعة الديناميت وتجارة الكحول السرية. كما يتحكمون مع سيسل رودس في الصحافة، ويتلاعبون بسوق الرقيق، ويديرون الأعمال التجارية الأساسية في كل من جوهانسبرج وبريتوريا. كما يُلاحظ أيضًا أن أعدادًا كبيرة أيضًا من يهود إنجلترا، خصوصًا يهود اليديشية، انخرطوا في صفوف الحركات اليسارية والعمالية والعدمية. وأدى هذا إلى ارتباط أعضاء الجماعات اليهودية بكل من أقصى اليمين والرجعية، وأقصى اليسار والثورية، في وقت واحد.

في هذا الجو، سُكِّلت لجنة خاصة لمناقشة هجرة يهود شرق أوروبا، وقدمت حكومة بلفور، الذي كان يشغل منصب رئيس الوزراء آنذاك، مشروع قانون عام ١٩٠٢ يُسمى «قانون الغرباء» الذي ووفق عليه عام ١٩٠٥ للحد من الهجرة.

وفي هذا الإطار، طُرحت الفكرة الصهيونية، فعارضها اليهود الإنجليز وأيدها يهود اليديشية. وزار هرتزل إنجلترا لأول مرة عام ١٨٩٥ وألقى خطبة في حيّ إيست إند عن موضوع الهجرة، وكانت هذه أول مواجهة حقيقية بينه وبين يهود اليديشية. ثم عُقد المؤتمر الصهيوني الرابع (١٩٠٠) في لندن. وحيث إن يهود إنجلترا الأصليين كانوا من كبار معارضي المشروع الصهيوني، توجه هرتزل أساسًا إلى يهود اليديشية، كما وضع نصب عينيه الوصول إلى السلطات الحاكمة مباشرة لعرض المشروع الصهيوني كرقعة تلتقى فيها المصالح العنصرية والاستعمارية بالرؤية الصهيونية. وفي عام ١٩٠٢، نجح أحد أصدقاء هرتزل في دعوته للمثول

أمام اللجنة الملكية، حيث قدّم حلاً صهيونياً مفاده تحويل الهجرة من إنجلترا إلى أية بقعة أخرى خارج أوروبا. وانطلاقاً من هذا، عُرض مشروع شرق إفريقيا، ثم صدر وعد بلفور، أهم حدث في تاريخ الصهيونية، الذي جاء انتصاراً للمنظمة الصهيونية على يهود إنجلترا، وللفكر الصهيوني على يهود العالم.

عالم آخذ في الاندثار

نشرت جريدة يديعوت أحرونوت (في عددها الصادر في ٢٠ أبريل ٢٠٠٠) مقالاً بقلم سيفر بلوتسكرب بعنوان «عالم آخذ في الاندثار»، وكلمة «عالم» هنا تشير إلى «عالم اليهود». وإذا كان أعضاء الجماعات اليهودية قد واجهوا في نهاية القرن التاسع عشر مشكلة تزايد أعدادهم فإن الآفة قد انعكست تماماً في القرن العشرين حتى وصلت حد الأزمة في الوقت الحاضر.

وقد أشرنا إلى حدوث طفرتين سكانييتين بين الجماعات اليهودية، الثانية بدأت بعد مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ مما أدى إلى تحول اليهود من جماعات دينية إثنية صغيرة إلى جماعات يبلغ بعضها عدة ملايين، وكانت الجماعات اليهودية في شرق أوروبا تُعد من أهم الجماعات من الناحية العددية. ولكن رغم استمرار أعدادهم في التزايد إلى ما بعد الحرب العالمية الأولى إلا أن العوامل التي أدت إلى هذا التزايد اختفت تماماً، كما ظهرت عناصر لم يكن من شأنها تشجيع اليهود إلى الإنجاب بل وأدت إلى تناقص أعدادهم. ومن أهم هذه الأسباب تصاعد معدلات العلمنة، مما يعنى تزايد معدلات التوجه نحو اللذة، والعزوف عن الإنجاب. وهذه الفترة هي ما يُعرف باسم فترة «الهجرة اليهودية الكبرى» (من شرق أوروبا إلى الولايات المتحدة). والعناصر المهاجرة - بسبب عدم استقرارها - تتخذ

موقفًا حذرًا من الإنجاب. كما أن غالبية يهود العالم بدأت تستقر في المدن الكبرى والعواصم، ومن المعروف أن سكان المدن لا يتكاثرون بنفس معدل سكان القرى، كما أن المناطق التي تركز فيها أعضاء الجماعات اليهودية كانت مسرحًا للثورات والحروب (على عكس الفترة من ١٨١٥ - ١٩١٤). ويلاحظ أنه مع تزايد معدلات العلمنة بين أعضاء الجماعات اليهودية زادت معدلات الزواج المختلط والانصهار والتنصر. لكل هذا تناقص عدد اليهود وتناقصت معدلات الوفيات بينهم. وقد أشار يوربا إنجلمان في كتابه «ظهور اليهود في العالم الغربي» (١٩٤٤) إلى ما سماه العملية ذات الأبعاد الثلاثة (تناقص المواليد وتزايد الوفيات وتزايد معدلات الاندماج) التي ستؤدي إلى تفسخ السكان اليهود بالكامل وحذر من أن نسبة المواليد لا تعوض نسبة الوفيات وأن معدلات المواليد بين اليهود في شرق أوروبا (قبل الهجوم النازي عليهم وعلى غيرهم من الأقليات) وصلت نقطة الخطر. وفي دراسة بعنوان اختفاء اليهود الألمان كتبت عام ١٩٠٨، حذر صاحبها (تايلهابن) مما سماه الضعف السكاني الذي قد يؤدي إلى اختفاء يهود ألمانيا تمامًا.

ثم جاءت الحرب العالمية الثانية، وقد ساهم في تناقص عدد اليهود ظروف الحرب مثل المجاعة وسوء الأحوال الصحية وسوء التغذية والغارات على المدن وسقوط القتلى من أعضاء الجماعات اليهودية أثناء المعارك العسكرية وأعمال السخرة وعزل اليهود في مناطق مستقلة مزدحمة يعملون ويعيشون فيها تحت حد الكفاف (جيتوات حديثة)، وهو ما كان يعنى المزيد من الجوع والمرض (يُقال إن نحو ثلث سكان جيتو وارسو أثناء الاحتلال النازي قضاوا نحبيهم بهذه الطريقة، وإن كان من المتوقع لهم جميعاً أن يُبادوا تمامًا خلال عدة أعوام). إلى جانب أن عدم الإحساس

بالأمن أثناء الحرب يُعد من أهم العوامل التى تجعل الناس يعزفون عن الإنجاب. كما يُلاحظ تزايد معدلات الاندماج والزواج المختلط والتنصر بين أعضاء الجماعات اليهودية. وقد حصل كثير من اليهود على شهادات تعمد من الكنيسة الكاثوليكية حتى يتسنى لهم دخول أمريكا اللاتينية وآثرت أعداد كبيرة منهم عدم الإفصاح عن هويتهم اليهودية حتى بعد زوال الخطر. وينطبق نفس الشيء على مئات الآلاف من اليهود الذين هاجروا إلى روسيا السوفيتية هرباً من النازيين.

وهنا يمكن أن نثير قضية ستة الملايين ضحايا الإبادة النازية لليهود. فحسب بعض الإحصاءات الغربية (أقول بعض وليس كل، فهناك إحصاءات أخرى) انخفض عدد اليهود من ١٦,٥٠٠,٠٠٠ عام ١٩٣٩ (أى عشية الحرب العالمية الثانية) إلى ١٠,٨٥٠,٠٠٠، ويستنتج من ذلك أن عدد ضحايا الإبادة النازية هو ستة ملايين. ورغم أن الإبادة النازية لليهود أوربا وغيرهم من الأقليات هى تعبير عن نمط إبادة غربى عام (إبادة السكان الأصليين فى أمريكا الشمالية - إبادة السكان الأصليين فى أستراليا ونيوزيلندا - إبادة الملايين فى إفريقيا - حرب الإبادة ضد ألمانيا واليابان فى الحرب العالمية الثانية.. إلخ). ورغم أن تأسيس الدولة الصهيونية لا علاقة بالهولوكوست، رغم كل هذا إلا أنها توظف (أى الإبادة) وبشكل سوقى يسىء إلى ضحايا الإبادة أنفسهم لخدمة المصالح الصهيونية.

ورغم أنه قد يكون قد اختفى ستة ملايين بالفعل، لكن السؤال يطرح نفسه: هل اختفاؤهم هو نتيجة الإبادة المتعمدة أو أنها نتيجة مركب من الأسباب؟ السؤال يمكن أن يكون أكاديمياً محضاً، لأن الموت هو الموت سواء كان سريعاً بأفران الغاز أم بطيئاً من خلال أعمال السخرة، ولكن

ما يحول السؤال من سؤال أكاديمي إلى سؤال له أهمية سياسية مباشرة هو ما أشرنا إليه من توظيف بذئ للهولوكوست لتحقيق مكاسب للدولة الصهيونية وإسداد ستار سميك من الدخان على المناهج الأخرى في العالم سواء مذابح دولة الصهيانية أم مذابح الروس في الشيشان، ومن قبل ذلك المذابح الغربية المختلفة في المستعمرات!

وقد استمرت العناصر التي تؤدي إلى تناقص أعداد اليهود بعد الحرب العالمية الثانية، بل تصاعدت حدتها. فبلغ الزواج المختلط مؤخراً ما يقرب من ٥٠٪ في الولايات المتحدة وإلى ٨٠٪ في بلد مثل فلندا. وبعد أن كان الزواج المختلط من قبل مقصوراً على الذكور اليهود، يلاحظ تزايد النسبة بين الإناث في الآونة الأخيرة. وأصبح الزواج المتأخر، وهو نمط عام في الدول التي يُقال لها متقدمة، ظاهرة واضحة بين اليهود. ويمكن أن نضيف إلى كل هذا تزايد عدد الشواذ جنسياً بنسبة تصل في بعض المدن في الغرب إلى ٣٠٪ وهي آخذة في التزايد، ومعظم الشواذ جنسياً ينتمون إلى المرحلة العمرية النشطة جنسياً وتوجد بينهم نسبة عالية من اليهود. ويلاحظ انسحاب كثير من النساء اليهوديات من عملية الإنجاب بتأثير حركة التمركز حول الأنثى feminism التي تجعل من أي نشاط أنثوي خاص (مثل الإنجاب) أمراً سلبياً أو معوقاً لنشاط المرأة في الحياة العامة. كما أن ظاهرة الشذوذ الجنسي لم تعد ظاهرة مقصورة على الذكور اليهود وحسب وإنما تفشت أيضاً بين النساء اليهوديات. وقد ازداد تركيز اليهود في المدن، كما ازداد تفسخ الأسرة اليهودية وتزايدت نسبة الطلاق وهو ما يزيد من الإحجام عن الإنجاب.

وقد أدى كل هذا إلى تناقص نسبة المواليد بين أعضاء الجماعات اليهودية، حتى أصبحت واحدة من أقل النسب في العالم. وأية جماعة

إنسانية - حتى تعيد إنتاج نفسها بيولوجيًا - لا بد وأن تنجب الأنثى التي تنتمي إليها طفلًا في المتوسط. لكن المرأة اليهودية في الولايات المتحدة قد تكون أقل الإناث خصوبة في العالم، فالإناث في المرحلة العمرية ٣٥ - ٤٤ ينجبن ١,٥٧ طفلًا، أما المرحلة العمرية ٢٥ - ٣٤ (وهي المفروض أكثر المراحل خصوبة) فالإناث ينجبن فيها ٠,٨٧ أى أقل من طفل واحد، مما يدل على أن منحنى التناقص آخذ في الازدياد.

وقد بلغ عدد اليهود ١٣,٨٣٧,٥٠٠ عام ١٩٦٧، وبلغ ١٢,٩٨٨,٦٠٠ عام ١٩٨٢، أى أن عدد اليهود نقص بنحو المليون في هذه الفترة دون إبادة ومن خلال تناقص طبيعي. ويبلغ عدد اليهود حاليًا ١٣,٠٩٣,٠٠٠، أى إن عددهم ظل ثابتًا قرابة ربع قرن. ويتوقع معهد اليهودية المعاصرة التابع للجامعة العبرية بالقدس أن يصل عددهم إلى ١٣,٤٢٨,٠٠٠ عام ٢٠١٠. ولكن هناك توقعات أكثر تشاؤمًا من منظور صهيونى. فيذهب صموئيل لايرمان ومورتون واينفيلد إلى أن عدد يهود الولايات المتحدة سيصل إلى ٣,٩ ملايين عام ٢٠٧٠. أما إلباهوبرجمان (بمركز هارفارد للدراسات السكانية) فهو أكثر تشاؤمًا إذ يرى أنه حينما تحتفل الولايات المتحدة بعيدها المئوى الثالث (٢٠٧٦) لن يتجاوز عدد اليهود ٩٤٤,٠٠٠ (أى أقل من مليون). مع ملاحظة أن كلمة «يهودى» يتلاعب بها الديموجرافيون اليهود حتى يزيدوا من أعداد اليهود في العالم. وفيما يلى إحصاء بعدد اليهود في العالم حاليًا (عام ٢٠٠٠) وبعد عشرة أعوام (٢٠١٠).

أماكن التواجد	العدد الحالي	العدد المتوقع في عام ٢٠١٠
إسرائيل	٤,٧٩٠,٠٠٠	٥,٦٤٤,٠٠٠
أمريكا الشمالية	٦,٠٦٢,٠٠٠	٥,٩٣٩,٠٠٠
أمريكا الوسطى والجنوبية	٤٢٨,٠٠٠ (تضم الأرجنتين وحدها ٢٠٣ ألف)	٣٩٨,٠٠٠
أوروبا	١,١٣٨,٠٠٠ (تضم فرنسا وحدها ٥٢٢ ألفا)	١,٠٦٦,٠٠٠
الاتحاد السوفيتي السابق	٥٤٠,٠٠٠	١٨٠,٠٠٠
آسيا وشمال إفريقيا	٢٨,٠٠٠	٢٦,٠٠٠
جنوب إفريقيا + منطقة المحيط الهندي	١٩٥,٠٠٠	١٧٥,٠٠٠
الإجمالي	١٣,٠٩٣,٠٠٠	١٣,٤٢٨,٠٠٠

لمصدر: معهد «اليهودية المعاصرة» المسمى باسم «أم هيرمان» والتابع للجامعة العبرية بالقدس.

ويلاحظ أن عدد اليهود في العالم سيظل ثابتاً تقريباً - سيصبح هناك جماعتان يهوديتان أساسيتان: إسرائيل والولايات المتحدة وكندا «إلا إذ صدقت نبوءة إياهو برجمان، وفي هذه الحالة ن توجد سوى الجماعة اليهودية في إسرائيل). أما بقية العالم فسيضم جماعات يهودية صغيرة مشتتة ليس لها أي ثقل إحصائي.

أضواء على الوضع الديموجرافى ليهود العالم

وأخيراً ظهر تقرير العالم الإسرائيلى سير جيو ديلا برجولاه عن الوضع الديموجرافى (السكانى) ليهود العالم. وديلا برجولاه واحد من أهم المتخصصين فى هذا الموضوع. وسأحاول أن أعرض لبعض الحقائق التى ترد فى تقريره مع محاولة تفسيرها، فالأرقام لا تنطق بالحقيقة. إذ لابد من استنطاقها، من خلال ربط بعضها البعض، وبأنماط أشمل وأعم منها.

يلاحظ ديلا بلاجولاه أن أعضاء الجماعات اليهودية فى العالم زاد عددهم بمعدل ١٠٠ ألف نسمة فى الفترة من ١٩٩٨ حتى الوقت الحاضر، وأن عددهم أصبح الآن ١٣,٢ مليوناً بعد أن كان ١٣,١. ولكننا نعرف أن عدد اليهود عام ١٩٦٧ كان ١٣,٨٣٧,٥٠٠، أى إن عدد أعضاء الجماعات اليهودية لم يتزايد فى واقع الأمر وإنما تناقص حوالى نصف مليون فى الخمس والثلاثين سنة الماضية، وهذا رغم تحسن أوضاعهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى كل أنحاء العالم.

وفيما يلى توزيع أعضاء الجماعات اليهودية فى العالم:

القارة	عدد اليهود	النسبة المئوية
الأمريكتين	٦,٤٨٤,٨٠٠	٤٩,٢%
آسيا	٤,٩٣٢,٩٠٠	٣٧,٤%
أوروبا	١,٥٨٣,٠٠٠	١٢%
أستراليا	١٠١,٩٠٠	٠,٨%
إفريقيا	٨٩.٠٠٠	٠,٧%

التجمعات السكانية اليهودية الكبرى

التجمع	عدد اليهود
الولايات المتحدة	٥,٧٠٠,٠٠٠
إسرائيل	٤,٨٨٢,٠٠٠
فرنسا	٥٢١,٠٠٠
دول الكومنولث	٤٦٨,٠٠٠

والأرقام - كما قلنا - لا تقول شيئاً، فهي صماء، مجرد «حقائق»، وليست الحقيقة، فالحقيقة هي أمر كليّ شامل متكامل له معنى يجرده المرء من الحقائق المتناثرة الصماء، التي لا تعنى شيئاً في حد ذاتها ويمكن للدارس أن يفرض عليها ما يشاء من معانٍ. ولنحاول أن نفعل ذلك من هذه الأرقام.

إن الأرقام الواردة في الجدول السابق تبين أن غالبية ما يسمّى بـ «الشعب اليهودي» الذي يدعى الصهاينة أنه في حالة شوق دائم للعودة إلى أرض الميعاد (٦٣٪ أي ٨,٣ ملايين يهودي) لا يزال يعيش في «المنفى» بكامل إرادته ولا يوجد سوى ٣٧٪ منه أي ٤,٩ ملايين في إسرائيل، مما يعني أن «المنفى» ليس بعنفي، وأن الشعب ليس بشعب، وأن «الشتات» ليس بشتات، وأن كل ما هنالك هو أقليات يهودية وجد أعضاؤها أن حياتهم في أرجاء العالم تتيح لهم فرصاً حقيقية للحياة الإنسانية الكريمة وأن شعار الصهيوني «شعب بلا أرض» لا أساس له من الصحة، لأن أعضاء الجماعات اليهودية المنتشرة (لا المنفية) في أنحاء العالم لا تبحث عن أرض أو وطن، وإنما تندمج في المجتمعات التي يعيشون بين ظهرانيها.

وبالفعل توجد دراسة أصدرها مركز «الهوية اليهودية» بجامعة بار إيلان بإسرائيل تشير إلى أن معاداة اليهود قد انخفضت معدلاتها فى معظم دول العالم، كما أن وضع اليهود بها أصبح أفضل من أى وقت مضى. فاليهود مستقرون فى مجتمعاتهم ويحصلون على المناصب التى يريدونها، وكل هذه الأمور تزيد معدلات اندماجهم. خلال جيلين أو ثلاثة أجيال. ومن الطريف أن دكتور يعقوب إليأف مدير مركز الهوية اليهودية قد «حذر» من ذلك الوضع (كما جاء فى هاتسوفيه ٤/٩/٢٠٠٠)، ولذا تصر جامعة بار إيلان على ضرورة عقد مؤتمر دولى حول موضوع الاندماج وتعتزم عقد هذا المؤتمر بصفة سنوية وتخصص اعتمادات للأبحاث التى تجرى لمكافحة ظاهرة الاندماج. إن الاندماج يشكل خطورة حقيقية على الصهيونية، لأنها، كما قال أى إف. ستون، الفكر الأمريكى اليهودى، تعيش على الكوارث التى تحيق باليهود، وبدون كوارث لا يمكن أن تقوم لها قائمة، إذ يستقر اليهود حينذاك فى مجتمعاتهم، يعيشون فيها شأنهم شأن أية أقليات دينية أو إثنية أخرى.

ومن مظاهر الاستقرار والاندماج تصاعد معدلات الزواج المختلط بين أعضاء الجماعات اليهودية وأبناء مجتمع الأغلبية. وقد وصلت هذه الزيجات المختلطة إلى ما يزيد عن ٥٠٪ فى كثير من المناطق. وشير ديلا بروجولاه إلى أن ٢٥٪ فقط من أبناء هذه الزيجات هم الذين يصنفون أنفسهم يهوداً، ويمكن أن نضيف أنه حتى هؤلاء تكون هويتهم اليهودية ضعيفة وتكاد تكون اسمية، وكل هذا يؤدى إلى الانصهار والاختفاء الذى بلغ ذروته فى ألمانيا وأوكرانيا (٧٥٪).

ويسمى الصهاينة الزواج المختلط «الهولوكوست الصامت»، أى الإبادة الصامتة لليهود، وهى تسمية أيديولوجية كريهة ومضللة. فاليهود الذين

يستقرون في بلادهم ويتزاوجون من أعضاء الديانات الأخرى لا يُبَادُونَ، وما يتهاوى ويسقط هو الادعاءات الصهيونية الكاذبة. ويرى يعقوب إلباف أنه إن لم يتم الكفاح ضد ظاهرتي الاندماج والزواج المختلط فسوف يتقلص عدد أبناء «الشعب اليهودي» (المقيمين خارج إسرائيل) عام ٢٠٢٥ إلى ١,٥ - ٢,٥ مليون يهودي فقط، وهذه قد تكون مبالغة، ولكنها مبالغة دالة.

ومن الأمور المهمة التي يذكرها التقرير أن عدد اليهود في الاتحاد السوفيتي السابق خلال عام ٢٠٠٠ قد بلغ أقل من نصف مليون نسمة (٤٦٨ ألف يهودي، عدد كبير منهم من المسنين وغير القادرين أو الراغبين في الهجرة). وأن عدد اليهود في فرنسا حاليًا هو ٥٢١ ألفًا، أي أن عدد يهود فرنسا يفوق عدد اليهود في الاتحاد السوفيتي السابق. كما تشير الإحصاءات إلى أن عدد يهود غرب أوروبا أصبح أكثر من عدد يهود شرق أوروبا، لأول مرة في التاريخ الحديث، وهذه مسألة ذات أهمية قصوى. فنحن نذهب إلى أنه توجد صهيونيتان لا صهيونية واحدة: الأولى هي الصهيونية الاستيطانية، وهي أن يترك اليهودي بلده ويذهب إلى فلسطين ليصبح مستوطنًا صهيونيًا فيها. أما الثانية فهي الصهيونية التوطينية، وهي أنه يكتفى اليهودي الذي يسمى نفسه صهيونيًا بأن يعطى الدعم المالي والسياسي للمنظمة الصهيونية لتوطين يهود آخرين (وقد تم تلخيص موقف الصهيونية التوطينية في تعريف يقول إن الصهيوني التوطيني هو يهودي يدفع المال لليهودي ثان لإرسال يهودي ثالث إلى أرض الميعاد!). وصهيونية العالم الغربي صهيونية توطينية، فشرق أوروبا كان دائمًا مصدر المادة البشرية الاستيطانية، ومع جفاف ينابيعها، فإن أزمة الاستيطان ستتفاقم في الدولة الصهيونية.

وأخيراً يشير ديلا برجولاه إلى أنه إذا استمرت الاتجاهات الحالية (من تناقص عدد المواليد وتزايد معدلات الاندماج والزواج المختلط) والتي يصاحبها ظاهرة أن الجماعات اليهودية في العالم لا تتزايد بسبب العزوف عن الزواج والإنجاب (تنجب الأنثى اليهودية في الولايات المتحدة في المرحلة العمرية من ٢٠ - ٣٠، وهي أكثر مراحل العمر خصوبة، أقل من طفل، وحتى تعيد الجماعة الإنسافية إنتاج نفسها يجب أن تنجب الأنثى طفلين ونصفاً تقريباً). إذا حدث ذلك فإن ديلا برجولاه يتوقع أن عدد اليهود في إسرائيل سيكُون مماثلاً لعددهم في بقية أنحاء العالم، في غضون أقل من ٣٠ عاماً. ثم يشير إلى أن نصف الأطفال اليهود (ممن تصل أعمارهم إلى ١٥ سنة) يعيشون حالياً في إسرائيل، وأنه في عام ٢٠٢٠ ستصل نسبتهم إلى ثلثي الأطفال ممن هم في هذه المرحلة العمرية، وهذا الوضع الديموجرافي سيُغيّر الصورة تماماً.



الشوق الأزلي إلى صهيون

المصطلح الصهيوني مصطلح أيديولوجي متحيز معبأ بالمفاهيم الصهيونية. فمصطلحات مثل «الشعب اليهودي» و «المنفى» و «الشتات» مصطلحات لا أساس لها من الصحة إذا ما نظرنا إلى واقع اليهود الديموجرافي (السكاني). والمصطلحات الصهيونية بخصوص هجرة اليهود إلى فلسطين تحمل نفس الأعباء الأيديولوجية وبشكل أكثر حدة فهم يطلقون على الهجرة إلى فلسطين كلمة «عالياء» وهي كلمة عبرية مشتقة من فعل «يعلو»، ولذا فالكلمة تعني «الصعود إلى المساء» و «الصعود لقراءة التوراة في المعبد أثناء الصلاة» و «الصعود إلى أرض إسرائيل بغرض الاستيطان الديني». وفي العهد القديم نجد أن الذهاب إلى فلسطين يعبرُ عنه بعبارة

«الصعود إلى الأرض» (أما الذهاب إلى مصر فيُعبّر عنه بـ «النزول إليها»). وقد كانت للعالياء أغراض عديدة ولها إحياءات عاطفية ودينية، فمثلاً كانت تتم بغرض الشفاء من الأمراض وللتخلص من الفقر، كما كان الكهول يهاجرون لاعتقادهم أن الدفن في أرض الميعاد يجلب ثواباً كبيراً. وكان البعض «يعلو» إلى إرتس بسراويل بغرض دراسة التوراة.

وقد استخدمت الحركة الصهيونية هذا المصطلح الديني وجرده من بعده الإيماني المجازي وأطلقت على حركة الهجرة الصهيونية من شرق أوروبا إلى فلسطين في العصر الحديث، وفي هذا تعمية أيديولوجية. فالعالياء مصطلح ديني يصف أفعالاً فردية وأوامر يُفترض فيها أنها ربانية ذات قداسة معينة من وجهة نظر من يقوم بها، ولا يمكن إطلاقه على ظاهرة اقتصادية اجتماعية سياسية يقوم بها فريق من الصهاينة لا يؤمن معظمهم بالعقيدة اليهودية. ومما له دلالة أن كلمة «هجيراه» العبرية كلمة محايدة تؤدي نفس المعنى، ولكن الحركة الصهيونية تؤثر استخدام المصطلحات التقييمية على المصطلحات الوصفية حتى يمكنها فرض غمات أيديولوجية. وتهدف هذه المصطلحات الرومانسية ذات الهالات الدينية إلى توليد الانطباع أن اليهود في حالة شوق دائم وولع أزلي للعودة إلى صهيون الحبيبة!

وبدلاً من قبول الادعاءات الصهيونية عن أنفسهم كما يفعل كثير من المحللين الغربيين والعرب ننظر إلى الواقع ذاته، إلى إحصاءات الهجرة. إذا نظرنا إلى عدد اليهود الذين استوطنوا في فلسطين في الفترة بين عامي ١٨٨٢، ١٩٣٢ نجد أنه لا يتجاوز ١٧٤ ألفاً (منهم ٣٠ ألفاً، أي ١٦٪ من اليهود الذين استوطنوا في فلسطين لأسباب دينية قبل بداية الاستيطان الصهيوني). هذا يعني أنه خلال ٥٠ عاماً كان يهاجر إلى فلسطين ٢٥٠٠

يهودى كل عام من مجموع يهود العالم الذى بلغ آنذاك ١٦ مليوناً. وفى الفترة من ١٨٨٢ - ١٩١٤ غادر روسيا أربعة ملايين يهودى لم يتوجه منهم سوى ٩٠ ألفاً إلى فلسطين. فأين هذا التشوق الأزلى والدائم للعودة لأرض الميعاد؟

تغيرت الصورة قليلاً فى الفترة من ١٩٣٢ - ١٩٤٤ إذ هاجر ٢٦٥ ألف يهودى، وهو أعلى رقم بلغته أفواج المهاجرين أثناء الانتداب. وهذا لا يعود إلى الشوق الأزلى إياه، وإنما إلى وصول هتلر إلى السلطة ولذا قال أحدهم إنه إذا كان هرتزل هو ماركس الحركة الصهيونية، أى منظرها، فإن هتلر هو لينين الصهيونية، أى من وضعها موضع التنفيذ.

ونفس النمط يستمر بعد إعلان الدولة، فالهجرة لم تتم، إلا فى القليل النادر، لأسباب أيديولوجية. فيهود البلاد العربية لم يهاجروا حباً فى صهيون وإنما بحثاً عن الحراك الاجتماعى، ولذا نجد أن الأثرياء بينهم وذوى الخبرات الخاصة هاجروا إلى أوروبا. كما هاجر كل يهود الجزائر إلى فرنسا لأنهم كانوا يحملون الجنسية الفرنسية!

وقد تساقطت كل الادعاءات الصهيونية تماماً مع هجرة اليهود السوفييت الذين جاءوا إلى إسرائيل بحثاً عن الحراك الاجتماعى، ولذا فهم لا يريدون أن يسموا «شيئاً عن صهيون» على حد قول يورى جوردون رئيس قسم الاستيعاب فى الوكالة اليهودية. وقد لخص أحد المهاجرين المرتزقة الموقف بقوله: «لم يكن أمامى خيار سوى أن أذهب إلى إسرائيل بعد أن قضينا سبعة شهور فى روما». ولكنه أعلن عن تصميمه على عدم اليقاع. وقد بدأت الصحف الصادرة بالروسية فى إسرائيل بتخصيص مساحة كبيرة يحتلها معلنون يعرضون تزويد القراء بأشد ما يرغب المستهلكون فيه من سلع: تأشيرات دخول إلى كندا. وقد وصف أرييه

ديري، وزير الداخلية، المهاجرين المرتزقة وصفاً دقيقاً حين قال: إنهم بعد وصولهم ستجدهم جالسين على حقائق السفر. وقال أوبليون: «بعض ممن لا يمكنهم الذهاب إلى الولايات المتحدة سيأتون إلى إسرائيل بهدف استخدامها كمحطة على الطريق، وسيقومون باستغلالنا أيضاً، وسيأخذون أية خبرات قد نقدمها لهم، وقد ينتهي بنا الأمر إلى أن يتجمع عندنا عدد كبير من الناس الذين يشعرون باليأس والذين ينتظرون أول فرصة لينزحوا عن إسرائيل»، فهم يعرفون تماماً «أن إسرائيل بلد صعب وأن الولايات المتحدة بلد سهل بالمقارنة». والسهولة قيمة أساسية بالنسبة لهؤلاء الباحثين عن «الراحة والترف» (كما وصفهم يورى جوردون).

وقد وصف بعض المهاجرين الأسباب التي دعتهم إلى ترك الاتحاد السوفيتي، فقال أحدهم: إن الحياة هناك أصبحت مملة. فالهجرة إلى إسرائيل هي مجرد بحث عن الإثارة. وقال أحد أساتذة علم الجبر إنه ترك الاتحاد السوفيتي لأنه أدرك أن الوقت قد حان لأن يفعل ذلك، وأشار مهاجر ثالث إلى أنه ترك الاتحاد السوفيتي لأنه يريد أن يعيش حياة أفضل. وحتى يؤكد مدى عمق التزامه بهذه الفلسفة، ذكر أنه جاء لا ليشتري سيارة ولكن ليكون لديه سيارة بمحرك أكبر، ومن المستحيل أن تعرف كم مهاجراً (سوفيتياً) يشبه إيفان الذي ترك إسرائيل بعد أن عمل سنة في الكيبوتس، لأنه يكره التعصب الديني والطقس الحار، وكأنه كان يتوقع أن تكون أرض الميعاد في القطب الشمالي أو على مسافة صغيرة من روسيا، أو أن الحركة الصهيونية قد وعدته بأرض ميعاد مكيغة الهواء.

وكثير من هؤلاء الصهاينة أو المرتزقة ليس لهم علاقة كبيرة باليهودية. وقد جاء في صحيفة ها آرتس (١/١/٢٠٠١) أن حوالي ٢٢٥ ألفاً من المهاجرين الروس الجدد (أي حوالي ٢٥٪) الذين سجلوا كيهود ليسوا يهوداً

بالفعل. كما ذكرت الصحيفة نفسها في عددها الصادر في ٢٢ يونية ٢٠٠٠ أن عددًا كبيرًا منهم لم يكن يعرف في الماضي أنهم يهود، أى إنهم اكتشفوا أنهم يهود فجأة (وبخاصة بعد أن عرفوا عن التسهيلات أو الرشاوى المالية التى تُقدّم لهم). وتقوم المؤسسة الأشكنازية الغربية الحاكمة فى إسرائيل بتيسير الأمور لهم. ولذا تعقد لهم امتحانات صورية فى اليهودية يسهل عليهم اجتيازها حتى يمكن اعتبارهم يهودًا، وهذا يعود لأسباب لا علاقة لها بالصهيونية، وإنما بتعديل الميزان الديموجرافى (السكانى) لصالح الأشكناز فى مقابل السفارد، واليهود العلمانيون فى مقابل الأرثوذكس، واليهود ككل فى مقابل العرب. وتذهب المؤسسة الحاخامية إلى أن نصف هؤلاء المهاجرين السوفييت ليسوا يهودًا (وبخاصة إذا عرفنا أن نسبة الزواج المختلط بينهم عالية جدًا).

ويبلغ عدد الإسرائيليين من منشأ روسى (من الصهاينة المرتزقة) حوالى مليون (أى حوالى خمس سكان إسرائيل) يشكلون كتلة «قومية» مستقلة، لها تميزها وحضورها الخاص، فهم كيان مستقل داخل الكيان الإسرائيلى، فلهم محطة إذاعة وتليفزيون خاصة بهم، وصحافة باللغة الروسية وأندية ومدارس. فهم - كما قال أحدهم - «يفكرون بالروسية ويتواصلون فيما بينهم». وتتبع قوة الثقافة الروسية المحلية (المنقطعة الصلة بالثقافة الإسرائيلىة والمرتبطة بثقافة الوطن القديم) من حجمها الكبير ومن المؤهلات البشرية التى فى حيازتها. ولذا فهى تحافظ بشراسة على استقلالها، بل إن أحدهم أشار إلى تكوين حزب إسرائيل بعاليه على أنه بداية حرب الاستقلال الخاصة بالروس. ولذا لا يُصنّف سوى ١٦٪ منهم نفسه على أنه «إسرائيلى» مقابل ٢٦٪ اعتبر نفسه «من رابطة الدول المستقلة» و ٣٢٪ اعتبر نفسه «يهوديًا» (أى أكثر من النصف) واكتفى ١٢٪ بأن يسمى نفسه تسمية محايدة «مهاجر جديد».

ولم يتم قبول هذه الكتلة الروسية من قبل المجتمع الإسرائيلي، ولذا يشعر ٥٩٪ من المهاجرين السوفييت أن المجتمع الإسرائيلي يستوعب الهجرة إما بلا مبالاة أو بعدائية. وفي المقابل حين سئل الإسرائيليون عن وصفهم للمهاجرين السوفيت قال حوالي ٣٦٪ إنهم بروفير كناس وسمسار وعاهرات (واتهام المهاجرين السوفييت باحتراف البغاء والجريمة المنظمة، اتهامات لها أساس في الواقع).